

في نصريّة الرواية لدى لوسيان غولدمان وميخائيل باختين آراء وإشارات

الأستاذ: فايد محمّد

معمد الآداب واللغات

المركز الجامعي تيسمسيلت

لوسيان غولدمان نصريّة في علم اجتماع الرواية:

المتعارف عليه أنّ لوكاش صاغ نظريّته في الرواية، استنادا إلى نسق فلسفي يُقيم علائق بين الشّكل الفنّي وانفتاح الرّوح على المطلق، ويُنشد تحقيق طمأنينة لهذه الرّوح، وقد ظلّ لوكاش في كتاباته ذلك المفكّر الذي استلهم هيجل Hegel وماركس Marx غير أنّه بعد أن أصبح ماركسيا تنكّر لإسهاماته الأولى مُثّلة في كتابيه (نظريّة الرواية) و(التّاريخ والوعي الطّبقي)، وقد جاء لوسيان غولدمان Lucien Goldman إلى إسهامات لوكاش التي تخلّى عنها، فأسّس انطلاقا منها جهوده في نظريّة الرواية، يقول مؤكّدا اعتمادا على كتاب (نظريّة الرواية) للوكاش: "لقد قادتنا دراسة نظرية الرواية إلى صياغة عدّة فرضيّات سوسيولوجية، تبدو لنا هامّة بوجه خاص وانطلاقا منها تطوّرت أبجاثنا اللاحقة⁽¹⁾ وتقوم هذه الفرضيات على إقامة علاقات بين العمل الإبداعيّ-الرّوائي على وجه الخصوص - والبنية الاقتصادية في المجتمع الرأسمالي. إنّ اتّخاذ غولدمان، لوكاش أستاذا له لا يخلع عليه صفة التّبعيّة المطلقة، أو الاتفاق التّام مع رؤى لوكاش، كما لا يفهم من ذلك أنّ غولدمان يمثّل -آليا- استمرارا لأفكار أستاذه.

سعى لوسيان غولدمان إلى اجترح نظريّة خاصّة به تقوم على التّعامل مع العمل الأدبي في علاقاته الدّاخلية -بنيته المحايثة- مع إدراج البنية الدّلالية لهذا العمل، في بنية اجتماعية شاملة وواسعة. إنّ جهد غولدمان يؤسّس لتصوّر خاص لعلم اجتماع الرواية، يركّز على ارتباط بنية الرواية، بالبنية الاجتماعية التي يوطّرها الاقتصاد الرأسمالي⁽²⁾، وجليّ أنّ ربط الشّكل الرّوائي بالمجتمع الرأسمالي دليل على

تأثر غولدمان بلوكاش، وسنحاول أن نقدّم بعض الإشارات المتّصلة بالعلاقة بين نظرية الرواية وعلم الاجتماع.

بدأت بوادر نظرية الرواية بالظهور والتشكّل، عندما بدأ علم الاجتماع اهتمامه بالرواية وبعبارة أخرى نقول: إنّ "نظرية الرواية لم تتبلور وتبرز إلى الوجود إلاّ بفضل هذا المنهج⁽³⁾ وبالطبع نقصد علم الاجتماع الذي لم تكن له صورة واحدة في تعامله مع الرواية فقد اتخذ أشكالا متعدّدة، أفرزها تطوّره وتحديدّه لمقولاته وإجراءاته، ولأجل ذلك يمكن أن نتحدّث عن ثلاثة أشكال اتخذها علم الاجتماع في تعامله مع الرواية.

يتجلّى الشكل الأوّل، في النّقد الجدلي الذي يهتمّ تحديدا بالوصول إلى موقف المبدع من الصّراع الاجتماعي، من خلال البحث عن المدلول الاجتماعي للعمل الروائي. ورغم التعديلات التي أعملها جورج بليخانوف G. Plekhanov، الذي سعى إلى التمييز بين الكتابة الإبداعية، والتعبير الإيديولوجي المباشر إلاّ أن تعديلاته بقيت حبيسة جهوده النظرية، حيث كان مرتبطا في ممارساته بفكرة أسبقية التمثيل الاجتماعي، أكثر من ارتباطه بالجانب الجمالي، الذي يحوز أهمية لا يمكن أن تنكر، في بناء الشكل الروائي.

أمّا الشكل الثاني فتمثّله إسهامات لوكاش، وقد تطرّقنا إلى جوانب منها في بداية هذا الفصل وإسهامات لوسيان غولدمان -تلميذ لوكاش- في ما يسمّى (البنوية التكوينية)، وسنتكلّم عن إسهاماته بعد قليل. وأمّا الشكل الثالث فيتمثّل تطويرا للآراء السابقة، ومن رواد هذا الشكل النّاقّد بيير زيمّا Pierre Zima، ويصطلح على هذا الإسهام سوسيولوجيا النصّ الروائي، وتؤسّس لهذا الإسهام آراء ميخائيل باختين M. Bakhtin، بصورة واضحة سبقت زمنيا إسهامات زيمّا، وتحتّم سوسيولوجيا النصّ الروائي أكثر بالعلاقات الدّاخلية في النصّ مستثمرة نتائج الدّراسات اللّسانية الحديثة، وآخذة على التّوجّه الغولدماني الحضور المكثّف للعناصر الخارجيّة⁽⁴⁾، التي تُمثّل بنية اجتماعية، واقتصادية واسعة تندرج ضمنها البنية الدّلالية للعمل الأدبي، المعبرّ ليس فقط عن المبدع، وإنّما عن طبقة اجتماعية كاملة⁽⁵⁾.

إنّ غولدمان - وكما سبق أن ذكرنا - ينطلق من حاضر مظلم رسمه لوكاش، عندما قال إنّ إنسان العالم الحديث يعيش الضياع والاغتراب، في عالم هجره الإله، فلا هو حقّق قيمه الأصيلة في عالم الإثم الكامل، ولا هو استطاع خلق عالم يلقّهُ النّقاء، عالم يشاكل زمن الصفاء الأوّل. ويحاول غولدمان إعادة صياغة

أفكار لوكاش - صياغة غير آلية -، فهو (أي غولدمان) "يرى في الحاضر المتدهور لحظة عابرة ويشرّع أبواب نظريته على مستقبل محتمل" ⁽⁶⁾، وتأسيسا على هذا، يعتبر غولدمان مقولة الفرد الإشكالي مقولة تحتاج إلى إعادة الصياغة، دون أن يرفضها رفضا قطعيا، ودون أن يقبلها قبولا مطلقا، فهو يرنو إليها متحوّطا، ومحاولا إعادة صياغتها وفق ما يتناسب مع أفكاره عن الفرد والفئات الاجتماعية. يصف غولدمان بحث الفرد/البطل الإشكالي عن القيم الأصيلة في المجتمع البرجوازي، بأنّه بحث متدهور، فالبطل "لا يعي القيم التي يبحث عنها، داخل مجتمع يجهل القيم ويكاد أن ينسى ذكرها تقريبا" ⁽⁷⁾، ويُسقط غولدمان صفة التدهور على البطل والعالم، فالأول متدهور لأنّه يسعى إلى إيجاد قيم، بطرق تناقض تلك القيم، والثاني متدهور لأنّه لا يتوفّر على إمكانية وجود تلك القيم فيه، لأنّه عالم مسكون بالتشظي، وينتج عن هذا أن تظلّ القيم مقصيّة (نسبيا) ، بسبب غياب فضاء تتحقّق فيه. إنّ الرواية ومن هذا المنظور، تعبّر عن قيم غائبة ولا وجود لها إلّا في تصوّر المبدع، إنّها حقا قيم لا توجد "إلّا بشكل مجرد ومفهومي في وعي الروائي" ⁽⁸⁾، الذي يُعبّر عن طبقة اجتماعية، وبالطبع لا يمكن وسم هذا التعبير بالآلية.

هناك ارتباط وثيق - في عُرف غولدمان - بين الرواية والمجتمع البرجوازي، إذ بقدر ما تعبّر الرواية عن هذا المجتمع، يترك هذا الأخير آثاره على تحولات الشكل الروائي. وعليه فإنّ هذا الأخير ينقل - جماليا - الحياة اليومية لمجتمع يحكمه السوق، إلى المستوى الأدبي، وعندما نقول (المستوى الأدبي)، فإنّ ذلك يخلع عن ذلك النقل صفة الآلية. وجليّ أنّ العلاقات اليومية في المجتمع البرجوازي، تحكمها النقود، والسلع، وقيم السوق، دون تحديد العلاقة بين قيم السوق وعلاقات البشر ببعضهم البعض، حيث تُمنح الأهمية "لقيم التبادل الكميّ، أي القيم التي ترمي بالطبيعة الإنسانية جانبا، وبداهة فإنّ قيم الاستعمال تستمر في الوجود" ⁽⁹⁾، وقيم الاستعمال هنا، تعادل القيم الأصيلة في عُرف لوكاش. إنّ إقامة علاقة وطيدة بين الشكل الروائي، والبنية الاجتماعية-الاقتصادية جعل غولدمان يؤكّد "أنّ هناك تماثلا دقيقا أو تطابقا بين البنيتين، لدرجة أنّ الرواية يمكن قراءتها على أنّها انتقال بالحياة اليومية في المجتمع الفردي، الذي خلقه إنتاج السوق، إلى المستوى الأدبي" ⁽¹⁰⁾. لقد أفرز ذلك المجتمع، منظومة علاقات يحكمها السوق، فأضحت العلاقات، علاقات سلع بسلع بدل أفراد بأفراد، إنّ هذا المنطق منطق أشياء أدّى لاحقا إلى انحلال الشخصية الروائية واضمحلال

الشكل الروائي ⁽¹¹⁾. يبرز هذا التحوّل الذي عاشه الشكل الروائي خاصة بما يسمّيه غولدمان بمرحلي كافكا Kafka وآلان روب-غرييه Robbe Grillet . A ⁽¹²⁾.

يُقيم غولدمان أهمية قصوى، للأديب المبدع الذي ينقل علاقات متشعبة (تحكمها الأشياء) من الحياة اليومية، إلى البنية الروائية (المستوى الأدبي)، وهذا التّقل لا يُعبّر فقط عن ذات المبدع لأنّ غولدمان يربط بين ذات المبدع والذات الاجتماعية. الأمر الذي يُعيّن العلاقة بين الشكل الروائي والذات الاجتماعية محورا أساسا، تشتغل عليه بحوث غولدمان، المهتم بالتناظر بين بنية الاقتصاد الرأسمالي، والبنية الروائية، فتاريخ المجتمع البرجوازي الذي تحكمه قيم السلعة (الأشياء)، أو ما يسمّيه غولدمان (البنية التشبيعية) يتجانس مع تطوّر البنى الروائية، حيث يحدّد - وقد أشرنا إلى بعض هذا أعلاه - المرحلة التي ظهرت فيها أعمال كافكا Kafka . F مرحلة لبداية انحلال الشخصية الروائية، بسبب طغيان قيم السوق، وهي مرحلة تلتها لاحقا كتابة روائية جديدة، قِلَقَةُ اللّغة، تبحث عن تحديد ما، يتوافق مع السيطرة المطلقة لقيم الأشياء.

يستلهم غولدمان مفاهيمه من الماركسية، ومن تطوّر الدّرس اللّساني، ويؤسّس انطلاقا من هذا ما يُسمّيه البنيوية التكوينية Structuralisme "Génétique" وهي منهجية تحاول البحث عن العلاقات الرّابطة بين الأثر الأدبي وسياقه الاجتماعي-الاقتصادي" ⁽¹³⁾، ويبيّن غولدمان أنّ مبدع العمل الفني مجموعة اجتماعية لا أفراد مبدعون، ويبرز ذلك بأطروحات ثلاث، يرى في الأولى منها أنّ الارتباط بين الحياة الاجتماعية، والإبداع الأدبي يحيل على البنى العقلية العميقة ويؤكد في الثانية التّطابق بين وعي الفئة الاجتماعية، والعمل الأدبي، أمّا الأطروحة الثالثة فيقرّر من خلالها، شدّة القرب بين البنى العقلية، والبنى العضلية والعصبية، التي تتحكّم في حركات الإنسان.

وتنهض آراء غولدمان على جملة مفاهيم أهمّها، رؤية العالم La Vision du monde، ويعرّفها غولدمان في مقدّمة كتابه (الإله الخفي) قائلا: "إنّ الرؤية الكونية هي بالضبط تلك المجموعة من التّطلّعات والأحاسيس والأفكار التي تجمع أفراد فئة ما، وغالبا ما تجمع طبقة اجتماعية..." ⁽¹⁴⁾، أي أنّ الإبداع الأدبي لا وجود له بمعزل عن جماعات اجتماعية، لكلّ منها تصوّر يمكّنها من رؤية العالم في تطوّر وتغيّره.

في اعتقاد غولدمان، لا يمكن أن نقوم بمحاولة قراءة العمل الأدبي بالاكْتفاء بالعمل وحده، ولا بالتركيز فقط على البنية الاجتماعية، ولأجل ذلك يقترح غولدمان أن يُقرأ العمل الأدبي في مرحلة أولى انطلاقاً من (الفهم) La Compréhension، والفهم عملية مهمتها "توضيح البنية الدلالية البسيطة نسبياً والمحايثة للأثر الأدبي" ⁽¹⁵⁾، أي أن الفهم يشكل عملية فكرية، الهدف من ورائها الاهتمام بالبناء الدلالي، الصادر عن النص المدروس، دون إقحام أية عناصر خارجية، وتعطي هذه العملية الدارس إمكانية استخراج بنية جزئية ينبغي لها أن تُدرج في بنية شاملة وواسعة، لا تكتمل قراءة العمل دونها.

يُطلق غولدمان على المرحلة الثانية، في قراءة العمل الأدبي، مصطلح الشرح أو التفسير L'explication، وينتج عن هذه العملية "إقامة العلاقة بين الأثر الأدبي والواقع الخارجي" ⁽¹⁶⁾، وتمثل هذه العملية، المستوى الذي يحدث فيه إدراج البنية الجزئية للأثر ضمن البنية الاجتماعية-الاقتصادية الشاملة. والحق أن الفهم والتفسير يمثلان عملية واحدة، تشتغل على الأثر الأدبي في مستويين، يتصل الأول بالأثر، والثاني بالبنى المحيطة به.

ومن المصطلحات التي يُعملها غولدمان، مصطلح البنية الدالة La Structure Significative ويعارض بها "كلمة البنية التي توحى بالسكون" ⁽¹⁷⁾، ويمكن أن تُلخص الركائز التي أسس عليها لوسيان غولدمان نظريته في الرواية على النحو الآتي ⁽¹⁸⁾:

- ليس المبدع إلا مُبرزاً، أو موضحاً لطموحات الجماعة، لأنه أكثر المنتمين لهذه الجماعة - لا نقصد الانتماء البيولوجي بالضرورة، بل نقصد انتماء ضمناً بالأفكار والرؤى -، قدرة على بلورة تلك الرؤية، نقصد رؤية العالم.
- الدور الأساس الذي يقوم به الفرد، هو الصياغة الجمالية لفكر منبثق عن الجماعة.
- يُتيح التناظر بين بنية العمل الأدبي، والبنية الاجتماعية-الاقتصادية، استقلالاً نسبياً للبناء الجمالي للعمل.
- يربط غولدمان إذاً بين الظواهر الاجتماعية والأدب، بل إنه يعدُّ الأدب ظاهرة اجتماعية تُقرأ وفق آليات من علم الاجتماع، الذي يحفل كثيراً بالاستفادة من علوم أخرى، مثل علم الاقتصاد والسياسة، بالإضافة إلى علم النفس
- نأتي الآن إلى أهم ما يمكن أن يلاحظ على إسهامات غولدمان، فنذكر أن القسم الأكبر من جهوده، حُصص لبحث العلائق بين البنية الاجتماعية والبنية

الرّوائية، وأنّ كلامه عن المرحلة الأولى في قراءة الأثر الأدبي، أو ما يسمّيه مرحلة الفهم، لم يُضبط نهائياً، وبعبارة أخرى يقول حميد حميداني: إنّ غولدمان لم ينجح "في اقتراح الوسائل والأدوات العمليّة، التي تمكّن من القيام بهذا التحليل" ⁽¹⁹⁾، ولأجل ذلك فإنّ اقتراح غولدمان حول تحليل الأعمال الرّوائية، من الدّاخل ظلّ يُراوح المستوى النظري، دون وسائل توازي هذا المستوى، لتُسهّل الوصول إلى المستوى التطبيقي. ونذكر بعض الملاحظات الأخرى بشكل مختصر:

- إنّ الاهتمام بالصلة بين المبدع والجماعة، وارتباط البنية الرّوائية ببنية الاقتصاد، يجعل من الإبداع الأدبي مرتبطاً وجوباً بما هو خارج عنه بالإضافة إلى أنّ التركيز على ذلك الارتباط عند غولدمان، يحدث دون ذكر "للرصيد الذي انبثقت من خضمّه الرّواية" ⁽²⁰⁾. وفي هذا إقصاء للتقنية الأدبية وتاريخ ارتباط الرّواية بالأجناس الأدبيّة الأخرى.

- إنّ اعتبار غولدمان، الأدب شكلاً نوعياً من الوعي الاجتماعي، دون تقديم ملاحظات عن المستوى المادّي لهذا الوعي، ونقص هذا كون الأدب ممارسة لغويّة، يجعل أسئلة من قبيل: هل تؤثر البنية الاقتصاديّة، في البنية اللّغويّة للعمل الأدبي؟ دون إجابة.

ورغم وجود بعض الاقتراحات الغولدمانية، التي سهّلت تسلّل النّقد إليها - والتي ذكرنا بعضها- فإنّ مرونة منهجيّته، وابتعادها عن آلية علم الاجتماع عند بعض رّواده، وابتعادها أيضاً عن انغلاق البنيوية الصوريّة، ساق إليه الشّقاء حتّى ممن هم في عداد خصومه، يقول رولان بارث Roland Barthes عن منهج غولدمان إنّّه: "من أكثر المناهج مرونة، وأكثرها مهارة مما يمكن أن نتخيّله صادراً عن التاريخ الاجتماعي والسياسي" ⁽²¹⁾، وهذه شهادة قيمتها من قيمة صاحبها في حقل النّقد الأدبي.

ولا نريد أن ننهي الحديث عن غولدمان دون أن نشير إلى أنّ ارتباط إسهاماته، بنمط الإنتاج الرّأسمالي الأوربي تحديداً، يؤدّي إلى صعوبة - إن لم نقل استحالة- تطبيق تلك الإسهامات على نمط، أو أنماط أخرى، تكوّن فيها شكل روائيّ مغاير، ويلاحظ أيضاً أنّ الشّكل الرّوائي المرتبط بالنمط الرّأسمالي لا يمكن أن يكون النمط الوحيد، الذي تستدعي خصوصيّاته فرداً إشكالياً لأنّ المقولات التي تحدّد صفات هذا الفرد (التمرد، العجز، الاغتراب)، تُتيح وجوده حتّى قبل وجود نمط الإنتاج الرّأسمالي، ويُفضي جعل غولدمان البنية الاقتصاديّة، محرّكاً محوريّاً

للبنى الأخرى إلى التساؤل عن إمكانية ظهور الشكل الروائي في مجتمعات لا تتحقق فيها صيغة التناظر الغولدمانية⁽²²⁾.

ميخائيل باختين.. الرواية وتعدد الأصوات:

يَصُدِّر ميخائيل باختين Mikhail Bakhtin عن خلفية مزدوجة، يُمَثِّل قطبها الأول ما يُعرف اليوم بالتداولية La Pragmatique، ولا يرفض باختين من خلال هذا القطب الألسنية، ويتبنّى في فهمه للإبداع الأدبي المعطيات التاريخية والمجتمعية. بينما يُشكِّل القطب الثاني خلفية سيميائية، تتعامل مع النص عن طريق تشریح علاقاته الداخلية والخارجية، مُمارِسة ذلك في أفق التحليل السوسولوجي لأشكال التعبير الإيديولوجي⁽²³⁾.

انطلاقاً من كتاب باختين (قضايا شعرية دستوفسكي)، يتجلى بوضوح منهجه أو نظريته في الرواية، هذه النظرية التي تشكّل صراحة، قطعة مع ما سبقها من جهود في التنظير للكتابة الروائية. إنَّها نظرية تتأسس على فصل تام بين الكلمة القاموسية، التي ينهض معناها في سياقها الخاص بها وحدها، والتي تحقّق تعبيريتها المباشرة دون مدّ العلاقات مع كلمات أخرى، تعتبرها كلمات محايدة، تمثّل إمكانية كلامية فقط، وبين الكلمة الحية، الكلمة الروائية - الكلمة التي ينتصر لها باختين-، التي لا يتحقّق وجودها إلاّ بوجود كلمات الآخرين فيها، من خلال صراع يُجسّد القبول، والرفض، والتقاطع، وانطلاقاً من هذا فإنّ نظرية باختين، نظرية في الكلمة الحية التي توجد دائماً " في علاقات التأثير والتأثير، كما لو كانت حياة الكلمة، جملة العلاقات الاجتماعية التي تعبّرها"⁽²⁴⁾، وهذا الطرح جديد لم يكن له حضور قبل باختين.

تُمثِّل الكلمة التي تتقاطع فيها جملة العلاقات الاجتماعية، تجسيدا حياً لصراع لهجات كثيرة، ومتعددة ومتناقضة، لأنّ كلمة الفرد - كما أشرنا سابقاً - يحكمها ثلوث القبول والرفض، والتقاطع، مع كلمات الآخرين، أي أنّها تعيش "خارج ذاتها، أي في حياة يومية تؤكد مادّة متميّزة تؤمّن حوار البشر وتعارفهم"⁽²⁵⁾ استناداً إلى هذا تعيش الكلمة في صميم الحياة الاجتماعية، ولا حياة لها خارج العلاقات الاجتماعية، والكلمة المعبرة عن تلك العلاقات، تحمل أفكاراً تتقاطع حيناً، ويقبل بعضها بعضاً حيناً آخر، وتحمل في أحيان أخرى رفضاً لكلمات أخرى و" تستدعي الكلمة في هذا التّعيين الإيديولوجيا، وتقدّم ذاتها كحامل إيديولوجي، وهو ما يجعلها (حلبة مصغرة) تتقاطع فيها اللهجات الاجتماعية

وتتصارع أيضا " (26)، فتقيم بذلك إحالة بينها وبين التاريخ وتطور المجتمع، وهي لا توجد أبدا بمعزل عن المتحدثين بها.

يؤكد باختين لحظة حديثه عن الكلمة الحية التي تمثل ظاهرة إيديولوجية، أو عينة إيديولوجية *Idéologème* (إيديولوجيم)، الارتباط الوثيق بين الكلمة والعلاقات الاجتماعية، التي تتغير وتتبدل قابلية الكلمة لأن تموت بفعل ما يطرأ عليها من تغير وتبدل، ويصدق هذا على اللغة، لأن الكلمة صورة اللغة، فالكلمة لا حياة لها - في عرف باختين - إلا على ألسنة من ينطقون بها، وكذلك اللغة لا تحضر ولا حياة لها إلا بممارستها من قبل أفراد يتحاورون (27).

وكما ذكرنا سابقا يتخلى ميخائيل باختين - خلافا لمن سبقه من منظرين - عن الربط بين الرواية، والمجتمع البرجوازي، باحثا لها (أي للرواية) عن جذور تتصل أساسا بالثقافة الشعبية، خاصة الكرنفال، أو الاحتفالات الشعبية الساخرة. يذهب باختين إلى أن الأدب الكرنفالي، يدحض ويرفض رتبة الوحدة الأسلوبية التي تجسدها الملحمة، ويرفض أيضا البيان الخطابي المنمق، كما يجسده الشعر الغنائي، لأن الكرنفال يسعى دائما إلى خلخلة المركزة اللغوية، فهو يزاوج بين السامي والوضيع، يحرك الضحك الشعبي وجلي - حسب باختين - أن الكرنفال أفاد الرواية بمادة غزيرة وجديدة ومتنوعة (28).

إن الرواية التي كانت في عرف لوكاش، ذلك الجنس الأدبي الذي يتطور سعيا لبلوغ شكل ملحمي - لا بالمفهوم الآلي -، والتي جعل لها غولدمان علاقات وثيقة الصلة بالبنية الاقتصادية في المجتمع البرجوازي، أضحت في عرف باختين، شكلا تعبيريا يصير ولا يكون، وبعبارة أخرى " لا تصل أبدا إلى نقطة من التطور، تتجمد عندها خصائصها في نموذج ثابت ومحدد" (29)، فهي جنس تعبير غير منته، لأنها مرتبطة باللغة، واللغة في تطور مستمر.

لأجل ذلك يركز باختين، في تعريفه للرواية على حوارية اللغة الروائية، وتعدد أصواتها، يقول: "إن الرواية ككل ظاهرة متعددة الأسلوب" (30)، ويقول أيضا: "إن الرواية هي التنوع الاجتماعي للغات" (31). يستنتج من ذلك أن اللغة تمثل حجر الزاوية في نظرية الرواية عند باختين وبالطبع فإن المقصود هنا، اللغة الحية التي يقيم معانيها أفراد يتحاورون، لا بنيتها الثابتة والمنغلقة (المعجمية).

اعتمادا على مفهوم الحوارية، وعلى مفهومين متقاربين معه، وهما تعددية الصوت *Polyphonie* وتعددية اللغة *Plurilinguisme*، ينتقد باختين الدراسات التي سبقته، والتي درست الرواية، إما عن طريق ربطها شبه الآلي بتطور المجتمع

الأوروبي، أو بالاهتمام بالنص الروائي في سياق منغلق سمته المركزة اللغوية⁽³²⁾.

تتجلى حوارية اللغة الروائية في ما يسميه باختين طرائق استحضار خطاب الآخر في النص الروائي، أو بعبارة أخرى، الوحدات الأسلوبية المشيدة لكل أجزاء الرواية ويحصرها باختين في:

أ - الحوار المباشر.

ب - أسلبة مختلف الأشكال السردية الشفوية التقليدية، وسنعرض بعد حين لمفهوم الأسلبة عند باختين.

ج - أشكال السرد المكتوب المختلفة، ويسمّيها باختين (نصف الأدبية) مثل: الرسائل والمذكرات الخاصة... إلخ.

د - الكتابات الفلسفية، والأخلاقية... وكل ما لا يدخل في إطار الفن الأدبي.

هـ - خطابات الشخصيات الروائية⁽³³⁾.

ولتفصيل ذلك سنتحدث عن وسائل تشييد صورة اللغة في الرواية، مستخدمين بعض المصطلحات التي أعملها باختين⁽³⁴⁾:

1- الحوارات الصريحة، أو الخالصة Les Dialogues Purs.

2- التهجين Hybridisation، ولا دلالة سلبية للتهجين عند باختين، بل على العكس من ذلك فإنّ التهجين لديه يُصبح مزيجاً، ومبعثاً على التجديد، ويقصد باختين بالتهجين، التقاء لغتين اجتماعيتين، داخل ملفوظ واحد، ويؤكد باختين على ضرورة أن يكون التهجين قصدياً.

3- تعالق اللغات، ويعني تشييد لغة الرواية لعلائق مع لغات أخرى، عن طريق إضاءة متبادلة ولكن دون أن يؤدي ذلك إلى توحيد اللغتين داخل الملفوظ الواحد، وللتعاليق صيغ يقول بها باختين وهي:

أ- الأسلبة Stylisation، يُدرجها باختين ضمن التهجين القصدي، ومعناها أن تقوم لغة معاصرة بأسلبة لغة أجنبية عنها (تُعيد تشكيلها)، فتأخذ بعض مكوّناتها، وتترك أخرى.

ب- التنويع Variation، وهو نوع من الأسلبة، يختبر من خلاله المؤسِّل، اللغة المؤسَّلة، عن طريق إدراج مادّة أجنبية ضمنها، ويجعلها ذلك في مواقف جديدة، تكون مستحيلة بالنسبة لها (بالنسبة للغة المؤسَّلة).

ج- الباروديا Parodic، تتعارض في هذا النوع الأساس من الأسلبة، نوايا اللغة المؤسَّلة، مع نوايا اللغة المؤسَّلة، وتعمل الأولى (المؤسَّلة) على فضح الثانية

(المؤسّلة) وتخطيطها ويشترط باختين أن يكون التخطيط قويًا وعميقًا، بحيث يخلق لغة بارودية تتسم بالكلية وتحوز منطقًا داخليًا، كاشفا لعالم مميّز يتصل أساسًا باللغة التي كانت موضوعًا للباروديا⁽³⁵⁾.

إنّ الخطاب الروائي يتفاعل مع كلّ ما يطرأ على اللغة، ومن خلالها مع العلاقات الاجتماعية، لأجل ذلك تتسلّل إليه اللهجات واللغات الاجتماعية، وهي لغات مشحونة إيديولوجيا، حتّى أنّ لغة الروائي تغدو لهجة من تلك اللهجات المتسلّلة إلى الرواية فتتفاعل معها⁽³⁶⁾، وقد وجد باختين في أبرز النماذج التي اشتغل عليها، نقصد روايات دستوفسكي Dostoevski، تجسيدا حيّا لذلك. إنّ روايات دستوفسكي -حسب باختين- تتميز بتعدد الأصوات، والتمثّل بحرية الاختلاف، تحوز ذلك الشخصيات الروائية "حيث يسمح الكاتب لمختلف الشخصيات بالتعبير عن اختلافها بعيدا عن هيمنته كروائي، وهو ما يجعل من رواياته حوارية"⁽³⁷⁾، ليس بالمعنى الضيق لكلمة الحوار، الذي يتجسّد في أصوات عالية، تصدّر عن أفراد يوجهون كلاما إلى بعضهم، بل إنّ باختين يقصد التفاعل الكلامي، والنصي مهما كان نمطه يقصد الجهد الكيفي الذي يضيفه الإنسان إلى جهد آخر معطى. إنّ وجهة نظر باختين التي طوّرت لاحقا، تجعل من العلوم الإنسانية علوما حوارية⁽³⁸⁾.

وفي ثنايا حديث باختين عن الحوارية، وعن الحرية التي بمنحها الروائي للشخصيات، يذكر أنّ أبرز سمات الكاتب الروائي، أن يتحدث في لغة الآخرين عن مراميه ومحمولاته، وعن الآخرين في لغته، ويحقّق هذا الأمر ثنائية لغوية، ويسمّي باختين التفاعل بين لغة الروائي ولغة أو لغات الآخرين، حرفا (بدون تفخيم الرأ) أو انكسارا Réfraction، وقد أدّى هذا إلى ما يُسمّى بحياد الكاتب، وسنذكر لاحقا أنّ القول بحياد الكاتب قد جرّ على باختين الكثير من النقد.

لن ننتقل إلى الحديث عن حضور باختين في الساحة النقدية، وجملة الانتقادات التي تعرضت لها إسهاماته، دون الإشارة إلى مصطلح مهمّ أعمله باختين، نقصد: مصطلح المغاير Variante وهو من المصطلحات المهمة في الطرح الباختي، ويدلّ هذا المصطلح على نوع أو أنواع مُميّزة داخل جنس تعبيريّ أساس، وبالنسبة للرواية فإنّ لها مغايرات مثل: الرواية النفسية، الرواية التاريخية... إلخ، وكلّها تتفرّع عن الرواية-الجنس، ويذكر باختين في كتابه الخطاب الروائي، ما يقرب من سبعة عشر مغايرا للرواية الأوروبية⁽³⁹⁾.

لقد تأخر اكتشاف باختين في الساحة النقدية الغربية، ويعود الفضل في اكتشافه لكل من تزفيتان تودوروف Tzvetan Todorov، وجوليا كريستيفا J. Kristeva وتعتبر هذه الأخيرة أول من عرّف بمفهوم الحوارية، أو التناص textualité، أو كما عبّرت عنه هي النصوصية أو العبر-نصية، حيث النص لوحة فسيفسائية تشكّلها جملة من الاقتباسات، وحيث هو عملية امتصاص وإعادة تشكيل لنص أو نصوص أخرى. إنّ التناص يجعلنا نفهم، أنّ الكتابة تصبح حواراً مع الذات، وتواصلًا فنيًا مع نص أو نصوص أخرى متعددة⁽⁴⁰⁾. ويعدّ الناقد السوفيتي مؤسسًا للاتجاه النقدي، الذي سمي بعده بالنقد الحوارية، ويصفه بعض النقاد بالمؤسس الفعلي للتداولية La pragmatique⁽⁴¹⁾، ولكن حضور باختين وأهميته لا يعني أنّ جهوده لم تتعرض للنقد والتجريح، بالرغم من أن ذلك لا ينقص من القيمة المعرفية لإسهاماته، التي ذكرنا سابقاً أنّها تمثّل قطعة مع الإسهامات السابقة في مجال التنظير للرواية.

إنّ حوارية باختين، تُفيد فقط في تحليل بنية العمل الروائي الداخلي، ولا صلاحية لها—في اعتقاد بعض النقاد—، إذا أردنا أن نُعملها في تحديد وظيفة هذا العمل، أي وظيفة الأدب في البنية الفكرية التي تتصارع في الواقع، هذه البنية التي يرفض باختين أن يكون لها أي سرّبال إيديولوجي معيّن، " إنّ جانباً كبيراً من المغالطة يكمن في (فلسفة باختين) هذه—إن كانت له بالفعل فلسفة—"⁽⁴²⁾، ومردّد ذلك إلى أنّ باختين يقول بالحياد المطلق للكاتب الروائي بالإضافة إلى كون الفكر الباختي، ينحصر ولدرجة كبيرة، في إبراز طبيعة الرواية في ذاتها ولا يمكن أن لا نضيف هنا أنّ باختين اشتغل على نموذج واحد هو الرواية الديالوجية (الحوارية) Roman Dialogique، ممثلة في إسهامات دستوفسكي، أي أنّه أقصى الرواية المنولوجية، التي يطغى عليها صوت كاتبها، واستناداً إلى ذلك يقول أحد النقاد إنّّه من الصعب الحديث عن نظرية باختيّة للرواية، وأنّ الأمر لا يعدو أن يكون حديثاً عن آراء عميقة أبداهها الناقد السوفيتي بخصوص الرواية⁽⁴³⁾.

ومن الأسئلة التي يواجهها طرح باختين، أنّ نظريته المستوحاة من طقوس الكرنفال، إن كانت صالحة لمقاربة النصوص الروائية الدستوفسكية فهل هي صالحة لمقاربة نصوص روائية أخرى؟ في أزمنة أخرى؟ ولعلّ هذه الأسئلة هي ما دفع بعض النقاد، إلى اقتراح المزاوجة بين الطرح الباختي، وما قال به غولدمان (قيم التبادل)، فتقارب بطرح باختين ما لا تصلح معه رؤية غولدمان، وبينوية غولدمان ما لا يصلح معه طرح باختين.

إنّ الملاحظة التي سجلناها، ونحن بصدد جمع المادة المعرفية من أجل عرض الأطر العامّة للطرح الباختيني، المتعلّق أساساً بالرواية، هي أنّ جلّ ما وقع بين أيدينا من دراسات ومقالات تناولت باختين، عرضاً أو مناقشة، ألحت على قصور هذه الرؤية، وإمكانية تطبيقها على نصوص روائية دون أخرى - نستثني هنا محمّد برادة-. ونحن نعتقد أنّ أمراً كهذا، لا يُنقص من قيمة جهود باختين، التي تمثّل صراحة قطيعة إبستيمية مع ما سبقها من مقاربات جنح أصحابها إلى ربط شبه آلي بين الرواية وتطوّر المجتمع الأوربي، والحقّ أنّ اليقينية الصرفة، عملة علمية لا ينبغي المغالاة في اشتراط حضورها وتحققها، خاصة في مجال العلوم الإنسانية.

نظريّة الرواية عند باختين، إسهام غدّي النقد المشتغل على الرواية، ولا يزال حضوره قويّاً وفعالاً خاصة مع تعدّد ترجماته إلى العربية وتواتر الدراسات حول آرائه.

إحالات

- 1-غولدمان (لوسيان)، مقدّمات في سوسيوولوجيّة الرواية، ترجمة: بدر الدّين عروذكي، دار الحوار للنشر والتّوزيع-سوريا، ط 1، 1993، ص 13.
- 2- ينظر : مجموعة من المؤلّفين، القصّة الرواية المؤلّف (دراسات في نظريّة الأنواع الأدبية المعاصرة)، ترجمة وتقديم: خيرى دومة، ص 11 (مقدّمة المترجم).
- 3- لحميداني (حميد)، النقد الرّوائي والإيديولوجيا، ص 55.
- 4- المرجع نفسه، ص 73.
- 5- للمزيد من التّفصيل حول الأشكال الثّلاثة، الّتي تعامل من خلالها علم الاجتماع مع الرّواية، يراجع : المرجع نفسه، ص ص 94/55.
- 6- درّاج (فيصل)، نظريّة الرّواية والرّواية العربية، ص 40.
- 7-المرجع نفسه، الصفحة نفسها. ويراجع حول مسألة الفرد الإشكالي الغولدماني: مقدّمة كتابه (الإله الخفي)، ضمن كتاب: خشفة (محمد نديم)، تأصيل النص (المنهج البنيوي التكويني لدى لوسيان جولدمان)، مركز الإنماء الحضاري، ط 1، 1997، ص ص 47/44.
- 8-جولدمان (لوسيان)، مقدّمة إلى مشكلات علم اجتماع الرّواية، ضمن كتاب (القصّة الرّواية المؤلّف)، مرجع مذكور، ص 113.
- 9-درّاج (فيصل)، نظريّة الرّواية والرّواية العربية، ص 43. ويراجع: يعقوب (ناصر)، اللّغة الشعريّة وتحليلاتها في الرّواية العربية (1970-2000)، المؤسسة العربية للدراسات والنّشر، ط 1، 2004، ص 145.
- 10-بينيت (توني)، سوسيوولوجيا الأنواع (عرض نقدي)، ضمن القصّة الرّواية المؤلّف (مذكور)، ص 174.
- 11-نقصد اضمحلال الشكل الرّوائي التقليدي الّذي ينحو نحوو بالزركيا (نسبة إلى الرّوائي بالزرك)، وهو الشّكل الّذي يمنح الشّخصية أهميّة كبيرة ويجعل منها محرّكا محوريا يقوم عليه البناء الرّوائي، وقد أخذت بوادر اضمحلال هذا الشكل بالظهور انطلاقا من إسهامات فرانز كافكا Franz Kafka وجيمس جويس James Joyce، وتطوّرت مع صدور الأعمال الأولى لكثير من كتّاب الرّواية الجديدة نذكر منهم: آلان روب- غرييه A. Robbe-Grillet، ونتالي ساروت Nathalie S، وميشال بوتور M. Butor، وهي الكتابات الّتي اصطّلع عليها اسم الرّواية الجديد. أو بتعبير جون بول سارتر J. Paul Sartre (ضد الرّواية - Anti Roman)، وستنطرق لذلك بعد إنهاء عرض إسهام كل من غولدمان وميخائيل باختين.
- 12- ينظر: غولدمان (لوسيان)، مقدّمة إلى مشكلات علم اجتماع الرّواية، ضمن القصّة الرّواية المؤلّف (مذكور)، ص 113.
- 13-خشفة (محمد نديم)، تأصيل النص، ص 19. من أجل مزيد من التّفصيل حول البنيوية التكوينية، يراجع: مقالة غولدمان الموسومة بـ (المنهج البنيوي التكويني في تاريخ الأدب) ضمن

- الكتاب نفسه، ص ص 78/55. ويراجع أيضا: البازعي (سعد) والرويلي (ميجان)، دليل الناقد الأدبي، ص ص 44/41.
- 14- حشفة (محمد نديم)، تأصيل النص، ص 44. ويراجع أيضا: ساري (محمد)، البحث عن النقد الأدبي الجديد، ص ص 43/41.
- 15- المرجع نفسه، ص 11. ويراجع: ساري (محمد)، المرجع السابق، ص 53 و 54.
- 16- نفسه، الصفحة نفسها.
- 17- درّاج (فيصل)، نظريّة الرواية والرواية العربية، ص 52.
- 18- ينظر: حميداني (حميد)، النقد الروائي والإيديولوجيا، ص 66 و 67. وللمزيد من التفصيل يراجع: غولدمان (لوسيان)، مقدّمة في سوسيولوجية الرواية، ص 24 و 25.
- 19- المرجع نفسه، ص 70.
- 20- إبراهيم (عبد الله)، السردية العربية الحديثة، ص 66. وللمزيد حول إسهامات غولدمان عامّة، يراجع: الجيار (مدحت)، النصّ الأدبي من منظور اجتماعي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط؟، 2001، ص ص 79/55.
- 21- barthes (Roland), *essais critique, seuil*, 1964, p 252. نقلا عن: حميداني (حميد)، النقد الروائي والإيديولوجيا، ص 71.
- 22- ينظر: درّاج (فيصل)، نظريّة الرواية والرواية العربية، ص ص 62/57.
- 23- ينظر: باختين (ميخائيل)، الخطاب الروائي، ترجمة: محمد برادة، ص 15 (مقدّمة المترجم). ويراجع: ساري (محمد)، المنهج السوسيونقدي.. بين النظرية والتطبيق، مجلّة الأدب واللغة، جامعة الجزائر، العدد: 15، أفريل 2001، ص 52.
- 24- درّاج (فيصل)، نظريّة الرواية والرواية العربية، ص 66.
- 25- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 26- نفسه، ص 66.
- 27- نفسه، ص 67.
- 28- ينظر: السّعافين (إبراهيم)، تحولات السرد، ص ص 11/9. ويراجع: البازعي (سعد) والرويلي (ميجان)، دليل الناقد الأدبي، ص 213.
- 29- بينيت (توني)، سوسيولوجيا الأنواع (عرض نقدي)، ضمن: القصة الرواية المؤلّف (مذكور)، ص 176.
- 30- باختين (ميخائيل)، الخطاب الروائي، ص 38.
- 31- المرجع نفسه، ص 39. وللمزيد يراجع: نفسه، ص 39 (خاصة الفقرة الأولى).
- 32- ينظر: حميداني (حميد)، النقد الروائي والإيديولوجيا، ص 79.
- 33- ينظر: باختين (ميخائيل)، الخطاب الروائي، ص 38. ويراجع أيضا: باختين (ميخائيل)، الكلمة في الرواية، ترجمة: يوسف حلاق، منشورات وزارة الثقافة — دمشق، ط 1، 1988، ص 10.
- 34- ينظر: المرجع نفسه، ص 18 (مقدّمة المترجم). — يستلهم الناقد السوري سليمان (نبيل)، أفكار باختين، في دراسة شيقة عنوانها (جمالية الكلمة الروائية) يقارب من خلالها رواية

- (التفكك)، للروائي الجزائري رشيد بوجدر، يراجع كتابه: فتنة السرد والنقد، دار الحوار للنشر والتوزيع-سوريا، ط2، 2000، ص ص 141/127.
- 35-يراجع: المرجع نفسه، ص ص 31/27، وفصل التعدّد اللّغوي في الرواية، ص ص 98/73.
- ويراجع كذلك: ساري (محمد)، المنهج السوسيو نقدي بين النظرية والتطبيق، ص 53 و 54.
- 36-ينظر: بوزيدة (عبد القادر)، فلسفة اللغة والمبدأ الحوارية عند باخيتين، مجلّة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، العدد: 15، 2001، ص 70 و 71.
- 37- البازعي (سعد) والرويلي (ميجان)، دليل الناقد الأدبي، ص 212.
- 38-ينظر: الدغمومي (محمد) ، تأويل النصّ الروائي، ضمن كتاب (من قضايا التلقي والتأويل)، وهو عبارة عن أعمال ندوة نُظمت في كليّة الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، نوفمبر 1992، ط1، 1994، ص 47 و 48.
- 39-ينظر: باخيتين (ميخائيل)، الخطاب الروائي، ص 19 (مقدمة المترجم)، ولتوضيح أكثر يراجع: نفسه، ص ص 170/129.
- 40- ينظر.: kristeva (j) , rechreches pour une sémanalyse, seuil, paris, 1969, p 149.
- يراجع حول الحوارية: زيتوني (لطيف)، معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان ناشرون-بيروت، ط1، 2002، ص 83.
- وحول التناص: المرجع السابق، ص 63. و Reuter (yves), l'analyse du récit, nathan, paris, 2003, p 109.
- 41-يراجع: بوزيدة (عبد القادر)، ملاحظات ومقارنة بين بعض الاتجاهات التداولية (باختين ومانقونو نموذجاً)، مجلّة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، العدد: 17، 2006، ص 37.
- 42- لمحيدياني (حميد)، النقد الروائي والإيديولوجيا، ص 49.
- 43- ينظر: المرجع نفسه، ص 51 و 52.